

البداية والنهاية

من شرائع الإسلام أشد تضييعا وقد كان يكتب الموعدة إلى العامل من عماله فينخلع منها وربما عزل بعضهم نفسه عن العمالة وطوى البلاد من شدة ما تقع موعظته منه وذلك أن الموعدة إذا خرجت من قلب الواعظ دخلت قلب الموعوظ وقد صرح كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة وقد كتب إليه الحسن البصري بمواعظ حسان ولو تفحصنا ذلك لطال هذا الفصل ولكن قد ذكرنا ما فيه إشارة إلى ذلك وكتب إلى بعض عماله أذكر ليلة تمخص بالساعة فصباحها القيامة فيالها من ليلة وياله من صباح وكان يوما على الكافرين بن عسيرا وكتب إلى آخر أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد بك وانقطاع الرجاء منك قالوا فخلعت هذا العامل نفسه من العمالة وقدم على عمر فقال له مالك فقال خلقت قلبي بكتابك يا أمير المؤمنين والله لا أعود إلى ولاية أبدا فصل وقد رد جميع المظالم كما قدمنا حتى أنه رد فص خاتم كان في يده قال أعطانيه الوليد من غير حقه وخرج من جميع ما كان فيه من النعيم في الملابس والمأكول والمتاع حتى أنه ترك التمتع بزوجه الحسنة فاطمة بنت عبد الملك يقال كانت من أحسن النساء ويقال أنه رد جهازها إلى بيت المال والله أعلم وقد كان دخله في كل سنة قبل أن يلي الخلافة أربعين ألف دينار فترك ذلك كله حتى لم يبق له دخل سوى أربعمئة دينار في كل سنة وكان حاصله في خلافته ثلاثمئة درهم وكان له من الأولاد جماعة وكان ابنه عبد الملك أجملهم فمات في حياته في زمن خلافته حتى يقال إنه كان خيرا من أبيه فلما مات لم يظهر عليه حزن وقال أمر رضىه الله فلا أكرهه وكان قبل الخلافة يؤتى بالقميص الرفيع اللين جدا فيقول ما أحسنه لولا خشونة فيه فلما ولي الخلافة كان بعد ذلك يلبس القميص الغليظ المرقوع ولا يغسله حتى يتسخ جدا ويقول ما أحسنه لولا لينه وكان يلبس الفروة الغليظة وكان سراجة على ثلاث قصبات في رأسهن طين ولم يبن شيئا في أيام خلافته وكان يخدم نفسه بنفسه وقال ما تركت شيئا من الدنيا إلا عوضني الله ما هو خير منه وكان يأكل الغليظ ولا يبالي بشيء من النعيم ولا يتبعه نفسه ولا يوده حتى قال أبو سليمان الداراني كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس القرني لأن عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها ولا ندري حال أويس لو ملك ما ملكه عمر كيف يكون ليس من جرب كمن لم يجرب وتقدم قول مالك بن دينار إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز وقال عبد الله بن دينار لم يكن عمر يرتزق من بيت المال شيئا وذكروا أنه أمر جارية تروحه حتى ينام فروحته فنامت هي فأخذ المروحة من يدها وجعل